التصوف

من وحي القرآن والسنة

للأستاذ

حسن كامل الملطاوي

وكيل وزارة الخزانة

محاضرة ألقاها بدعوة من الأزهر الشريف

بقاعة المحاضرات الأزهرية

١٩ من شعبان ١٣٨٢ — ١٥ من يناير ١٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

التصوف من وحى القرآن والسنة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، وسبحانه من إله بر رحيم ، أجرى السعادة فى سوابق الأزل للمؤمنين ، وخص منهم بالمحبة الأنبياء والمرسلين ، والأصفياء الصديقين ، والأولياء المتقين ، فلما أظهرهم فى عالم التكليف ألهب بالشوق الدائم قلوبهم إليه تعالى ، فلم يأنسوا إلابه ، ولم يركنوا إلا إليه ، ولم يعتزوا إلا بسلطانه .

والصلاة والسلام على حبيبنا المصطفى أصفى أصفيائه وإمام أهل الشوق ، من تحلى بكمال العبودية وانتسب بها إلى مولاه ، فشرفه تعالى بذكرها فى كثير من آيات القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى :

((تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)) [١]

وقوله تعالى : ((سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى))[٢]

---

[١] آية ١ سورة الفرقان
[٢] آية ١ سورة الاسراء

وقوله تعالى : ((فأوحى إلى عبده ما أوحى)) [١].

ورضى الله عن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربين ، وعن أصحابه السابقين الأولين ، من نالوا من الله العناية والاختصاص ، وشرفهم بالانتساب إليه بالعبودية فقال رداً لكيد الشيطان عنهم .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) [٢].

ووصى [٣] بهم حبيبه ومصطفاه فى قوله تعالى :

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) [٤].

---

[١] آية ١٠ سورة النجم

[٢] آية ٤٢ سورة الحجر .

[٣] وبسبب هذه الوصية كان مولانا رسول الله عليه وسلم شديد العناية بأهل الصفة حتى لقد روى مسلم أن بعضهم رأى أبا سفييان فقالوا له إن سيوفنا لم تأخذ من عدو الله مأخذها فقال لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه أتقولون ذلك لشيخ قريش وسيدهم ولما أخبر الصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لعلك أغضبتهم يا أبا بكر لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله ، فرجع إليهم وقال لهم أغضبتكم ياإخوتاه ؟ قالوا لا ، يغفر الله لك ياأخى ـ وهو حديث يدل على وجوب احترام أولياء الله .

[٤] آية ٢٨ سورة الكهف .

فعاشوا بدوام الطاعة فى النور الإلهى ، ومشوا به سويا على صراط مستقيم ، وجاءت فاتحة الكتاب فدلت عليهم كل مؤمن بالقرآن ، وعلمت تاليها فى الصلاة وغير الصلاة أن يدعو ربه بدعوة اختارها الله له وهى : أن يهديه تعالى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم وهم الذين عرفتهم الآية الكريمة :

(ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) [١].

ورضى الله عن التابعين ، وتابعى التابعين ، وعمن اتبعوهم باحسان ، جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة ، وعن شيوخنا الصوفية الذين زكانا الله فى دينناعلى أيديهم . آمين . وبعد ...

فإننا ان تكلمنا عن التصوف ، انما نتكلم عن علم الفيض الذى أودعه الله قلوب أحبابه المحبوبين المحبين ، الذين أشار إليهم سبحانه فى قوله الكريم (يحبهم ويحبونه) [٢]، والمحبة كما يقول الصوفى الكبير الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : (آخذة من قلب عبده

---

[١] آية ٦٩ ، ٧٠ سورة النساء

[٢] آية ٥٤ من سورة المائدة .

كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزداد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، ليكسى حلل التقريب على بساط القربة ، فيمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم) .

وقد كانت التقوى ومحبة الله فاشيتين فى الأجيال الثلاثة الأولى : وهم جيل الصحابة ، وجيل التابعين ، وجيل تابعى التابعين ، وهؤلاء هم خير القرون كما قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : (خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونه) .

ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، واختلط العرب بغيرهم ، فترت الهمم فى طلب الله ، وصدأت القلوب بالغفلة عنه تعالى ، إذ اشتغل الناس بالشهوات وزخارف الدنيا الفانية التى حذر الله منها فى كثير من آيات الذكر الحكيم .

ولكن الله تعالى الذى شاء أن تكون هذه الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس ، لم يكل إلى أنفسهم يتيهون فى تلك الغفلة ، بل قيض لدعوة المؤمنين إلى الحق فريقاً من العلماء الربانيين والزهاد العابدين ، أحيوا نهج الصحابة ، ومشوا فى الناس بنور ربهم ، وشوقوهم إلى الله ، والتخلق بالأخلاق النبوية ، والتحلى بخصائص السابقين الأولين فى العبادة الدينية بصفة عامة ، وفى آداب

القلوب والأرواح بصفة خاصة ، ليجمعوا بين تزيين الظواهر بأفعال الجوارح ، وتزيين البواطن بحسن النية وصفاء الطوية والخلو من الأمراض القلبية ، لثقتهم بأن السبق إنما كتبه الله لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تأسوا بأفعاله الظاهرة وآدابه الباطنة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وتقيد هؤلاء الأئمة فى دعوتهم هذه بالكتاب والسنة والاخلاق النبوية ، وعرفوا بلقب (الصوفية) قبل المائتين من الهجرة ، وعرف علمهم المذاقى (بعلم التصوف) وعرف المتشبهون بهم فى أحوالهم (بالمتصوفة) .

وقد نفخوا فى أرواح المؤمنين نفخات قوية ، حتى ازدهرت بعد خمودها ، ونشطت بعد خمولها .

<u>مم اشتق اسم الصوفية</u> :

لم أجد إجماعا فى اشتقاق اسم الصوفية ، فمن قائل انه من الصفاء لأن الصفاء حلية القوم ، ومن قائل انهم منسوبون للصفة التى بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم لفقراء المهاجرين والأنصار فى مؤخرة مسجده المبارك ، فأقاموا فيها يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه كما حكى الله عنهم ، ومن قائل انهم منسوبون للصف لأنهم فى الصف الأول بقلوبهم مع الله ، ومن قائل انهم منسوبون للباس الصوف لأن غالب لبسهم كان من الصوف ، كما نسب الحواريون إلى

لبس الحوارى وهى الملابس البيضاء ، وهذا القول الأخير هو الذى رجحه الإمام الطوسى صاحب اللمع .

أما المستشرقون فقد ادعوا أن هذا الاسم جاء من الكلمة اليونانية سوفيا ومعناها الحكمة ، ولكنهم أرادوا بذلك أن يقولوا بطريق الالتواء المعهود فيهم أن التصوف مأخوذ من الفلسفة اليونانية ، ومؤدى قولهم هذا أنه دخيل على الإسلام .

ويقول الإمام القشيرى فى رسالته ان اسم الصوفية لا يشهد له قياس من حيث العربية والأظهر أنه لقب .

ولأبى الفتح البستى تعليل آخر يقول فيه :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا

قدما وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى

صافى فصوفى حتى سُمَّى الصوفى

أما سيدى أبو العباس المرسى فيعلل كلمة صوفى باشارات صوفية طريفة إذ يقول : إن كلمة صوفى مركبة من أربعة أحرف : ص ، و ، ف ،ى .

فالصاد : صبره ، وصدقه ، وصفاؤه .

والواو : وجده ، ووده ، ووفاؤه .

والفاء : فقده ، وفقره ، وفناؤه .

والياء : ياء النسبة .

فاذا تكمل فيه فقد أضيف إلى حضرة مولاه .

ولعل فيما تقديم الكفاية من حيث لفظ الصوفية .

أما التصوف فقد عرفه القطب الشعرانى رضى الله عنه بقوله : (التصوف عبارة عن انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة . كما انقدح لعلماء الشريعة حين عملوا بما علموه من الأحكام) .

وإن أردتم شرح هذا التعريف فاستمعوا إلى ما قاله أخونا المرحوم طه عبد الباقى سرور طيب الله ثراه ، وقد جاهد فى نشر فضائل الصوفية جهادا كبيرا ، وقد فقدناه أحوج ما نكون إليه ، ولكن لا راد لقضاء الله لنا وله : (والتصوف حقائق ورقائق ودقائق ، مستقرها القلب ، ومستودعها الروح ، ومبعثها الحب ، وتاجها فيوض من الله تتوالى ، وجماع ما يقال فى مقاماته وأحواله ، انها يقظة فى الوجدان والمشاعر والحس ، يقظة فوارة بالعاطفة ، جياشة بالحركة متوثبة بالتطلع والتأمل والتفكير فى آفاق القدرة ، وآيات العظمة ، وسمات الرحمة ، وانفساح فى القلب حتى يرى مكاشفة ببصيرته ما يبصر الناس وما لا يبصرون من مكنون عجائب الله وآياته

ومعارفه وإلهاماته ، واتساع فى الروح وقوة حتى تهيمن وتسود ، وتشرق وتزكو ، والروح من أمر الله ونفخة من روحه .

((وحسبنا هذا ، فالكلام هنا أدق من شعرة الصراط ، وأرق من نسيج الزهر ، لا تحتمله الآذان ، ولا تصبر عليه العقول ، وإنما نضع فوق الأبصار والآذان والعقول تلك الآية الربانية الناطقة بمقام المحبين (لهم ما يشاءون عند ربهم) .

<u>اختلاف الناس فى أمر الصوفية</u> :

اختلف الناس قديماً وحديثاً فى أمر السادة الصوفية ، ويرجع الاختلاف فى أمرهم إلى أسباب كثيرة : إما لجهل ما هم عليه ، أو للظن بأن التصوف دخيل على الأسلام ولا عهد لأوائل المسلمين به ، أو لأن بعض الذين انحرفوا عن جادة الدين ادعوا أنهم صوفية ورأى الناس من أفعالهم ما ينكره الإسلام وما يتعارض مع أحكم الدين ، أولا لأن قوما قلدوا الصوفية فى مظاهرهم المتقشفة ولم يتزينوا ببواطنهم النيرة فأخذ الناس عليهم خلوهم من العلم والعمل الصادق والهمة العالية والبصيرة النافذة .

وسأحاول فى هذه المحاضرة إن شاء الله أن أكشف جهد استطاعتى عن وجه الحقيقة وأبين للسادة السامعين أن التصوف هو علم القلوب والأرواح القائم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن السادة الصوفية هم المؤمنون حقاً ، وهم أهل

الإحسان ، وهو ((أن تعبد الله كأنك تراه فإنه لم تكن تراه فإنه يراك ، كما جاء فى حديث مسلم المشهور وقد عملوا بما علموا فورثهم الله علما من لدنه عز على غيرهم منالـه ، وهذا العلم الذى اختصهم الله به هو أثر من آثار رحمته تعالى بهم لأنهم وهبو أنفسهم وأنفاسهم لنور معرفته ، وحاربوا فى سبيله كل لذة مادية وشهوة جسدية تعوقهم فى سيرهم إلى الله ، وما دفعهم لذلك إلا معرفتهم بالسبب الذى خلقوا من أجله ، والمآل الذى يصيرون إليه ، وقد بين سبحانه وتعالى علة الوجود فى قوله الكريم :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [١] .

وقد سئل رويم وهو من اعلام الصوفية عن أول فرض افتراضه الله عز وجل على خلقه ما هو ، فقال المعرفة لقوله جل وعلا :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

قال ابن عباس : إلا ليعرفون . وقال الجنيد وهو إمام الصوفية : إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه ،

---

[١] آيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ سورة الذريات .

والمحدث كيف كان احداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

وبين سبحانه المآل فى قوله الكريم :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [١].

وبين الجزاء فى قوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[٢]

وفهم الصوفية للقرآن فهم عميق يأخذ بأحاسيسهم كلها ، لأنها قوم أحبهم الله وأحبوه وآثرهم وآثروه وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وقد قال سبحانه :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) [٣] .

---

[١] الآيتنا ١١٥ ، ١١٦ سورة المؤمنون .
[٢] الآيتان ٧ ، ٨ سورة الزلزلة .
[٣] الآية ٦٩ سورة العنكبوات

كما قال تعالى :

(الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [١] .

وسترون مما سأتلو عليكم أنهم جاهدوا فى الله حق جهاده بأنفسهم وأموالهم وعلمهم وآدابهم ، ونفخوا بأرواحهم العالية فى أرواح الأمة الإسلامية ، فشوقوا المؤمنين إلى الله ، وقربوا الهدى لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، وتركوا علمهم النورانى الذى غرفوه من الفيض الإلهى تراثا إسلاميا خالدا ، فأذاقوا به القلوب لذة المعرفة الربانية وحلاوة المناجاة وسعادة الاتصال بالله .

ومع أن الناس عوقتهم حجب المادة والمعاصى والغفلة كثيرا فلم يستطيعوا أن يحلقوا إلى الآفاق العليا التى حلق إليها الصوفية والتى تعلقوا فيها بالملأ الأعلى إلا انهم تأثروا من غير شك تأثراً ظاهرا إلى اليوم بمسلك الصوفية فبقيت فيهم بقية من صفات الخير كما بقى فيهم الإستعداد الطيب للرجوع إلى الله إذا ذكروا به ، وقد لمست ذلك بنفسى فى الأفراد والجماعات.

---

[١] الآية ٢٣ سورة الزمر .

والنـاس حـين اختلفـوا أمـر الصـوفية معذورون ، كمـا أن الصـوفية فـى مسـلكهم معذورون . فالأولون تهبط بهم ماديتهم الى الأرض ، والصوفيه تعلو بهم أرواحهم إلـى المـلا الأعلـى وان عاشت أبدانهم مع الناس فى الأرض إلى الأجل المكتوب عليهم .

والصوفى كما عرفتم لـه إلـى الله ميل دائـم بقلب هائم ، ولـيس النـاس كلهم علـى هذا الحـال ، لأنـهم يغفلـون عن الله كثيرا ويذكرونـه قلـيلا ، وفـى ذكرهم القليل ليسوا علـى صفاء الصوفية الذى يخترقون به الحجب ويغيبون بـه من عالم الحس الـى حقيقـة المشـاهدة وفنـاء القرب ، وحقاً ما يقوله الصوفية :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه

ولـو أن الاختـلاف فـى أمـر الصوفية وقـف عنـد عامـة النـاس لهـان الأمـر ، ولكـن الباحـث فـى تاريخ التصوف يرى أن بعض أهل العلم والفلاسفة اختلفوا كذلك فى أمر الصوفية كما يبين لكم من تاريخ التصوف

<u>تاريخ التصوف</u> :

أراد الصوفية أن يكونوا على جادة الحق وعلو الهمة فى عبادتهم متشبهين فـى ذلـك بأصـحاب رسول الله الذين كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، فطلبوا مولاهم لذاتـه تعالى ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، كما قالوا ، ونظروا إلى الجنة على أنها

هدية وإن عظمت فمهديها أعظم منها حتى لقد قالت (رابعة العدوية) فى مناجاتها له سبحانه وتعالى : (أولم تكن جنة ولم تكن نار لا تعبد ؟) كما قالت فى مناجاة أخرى : (إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقنى بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى ياإلهى من جمالك الأزلى) ، وتقدسه سبحانه وتعالى لذاته فتقول : (يارب اجعل النار لأعدائك والجنة لا حبائك وأما أنا فحسبى أنت) .

وهذه فلسفة فى العبادة ليست للعامة من الناس أو من عموم أهل العلم وانما هى للخاصة بل ولخاصة الخاصة من عباد الرحمن .

وقد كان لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلسفة خاصة فى العبادة ومن أبرزهم فى هذا المجال الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان رضى الله عنه الذى قيل له : نراك تتكلم كلاما لم نسمعه من أصحاب رسول الله ، فمن أين أخذته ، فقال : خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقنى .

وقال فى حديث آخر : فعلمت أنه من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وفى لفظ آخر كان الناس يقولون : يارسول الله ما لمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول يارسول

الله ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رآنى أسأل عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم .

وقال أبو طالب المكى : كان حذيفة قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق ، وبسرائر العلم ، ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين بين الصحابة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يصلى على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلى عليه لأنه اختص بهذا العلم الباطنى.

أقول وقد شهد القرآن بوجود العلم الباطنى فى مثل قوله تعالى :

(فارتدا على آثارهما قصصا * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) [١] .

وقد تكونت حول حذيفة بن اليمانى مجموعة من الصحابة منهم وابصة صاحب الحديث المشهور قال : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البر أو الإثم ألا أسأله عنه ، فجعلت أتخطى الناس ، فقالوا ؛ إليك ياوابصة عن رسول الله ، فقلت : دعونى أدنو منه فإنه أحب الناس إلى ، فقال : ياوابصة أخبرك بما جئت تسألى عنه أو تسألنى ؟ فقلت :

---

[١] آيتان ٦٤ ، ٦٥ سورة الكهف .

أخبرنى يارسول الله فقال : جئت تسألنى عن البر والإثم ؟ قلت : نعم ، قال : فجمع أصابعه وجعل ينكث بها صدرى ويقول : ياوابصة استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب فاطمأنت إليه النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك .

وعلى يد حذيفة بن اليمان تخرج إمام الصوفية الأول سيدى الحسن البصرى الذى تخرج على يديه أئمة الصوفية الأولين مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، ومحمد بن واسع ، وهم أعلام التصوف فى القرن الأول ومطلع الثانى .

وكان الحسن البصرى يحدث تلاميذه فى خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفس . وقد قيل له : يا أبا سعيد ، انك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك ، فمن أين أخذت هذا ، فقال : من حذيفة بن اليمانى .

وأسس الحسن البصرى مدرسته الكبرى فى البصرة ، فنشر نوره ، وقاوم علماء الألسن والجاه الذين اندسوا بين المسلمين ودعوا إلى شئيت من النحل والمذاهب ، وقد أهم هذا الأمر مولانا الإمام على كرم الله وجهه ، فطاف المساجد وفض حلقاتهم ، وكان يقول : هذا بدعة منكر ، ولما انتهى إلى حلقة الحسن البصرى ، قال له : يافتى ، أسألك عن شيئين فإن خرجت منها تركتك تكلم الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت الذين يبدلون .

ويحرفون ، فقال : سل يا أمير المؤمنين ، فقال : أخبرنى ، ما صلاح هذا الدين وما فساده ؟ فقال : صلاحه الورع وفساده الطمع ، قال : صدقت تكلم فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس .

وكان الحسن البصرى يقول لتلاميذه : حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور ، واقرعوا النفوس فإنها خليعة ، وإنكم إن أطعتموها تنزل بكم إلى شر غاية .

وعن عمران القصير قال : سألت الحسن عن شىء فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينيك ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه عز وجل .

وبفضل الحسن البصرى استقرت زعامة التصوف فى البصرة .

وقامت فى بغداد مدرسة أخرى بقيادة العالم العابد التابعى سعيد ابن المسيب ، ومن تلاميذه أبو حمزة الصوفى .

ثم نشأت مدرسة ثالثة فى خراسان بزعامة الإمام ابراهيم بن أدهم . ثم انتشر التصوف فى القرن الثالث الهجرى فى عصر الإمام الجنيد ، لأنه كان عصراً مزدهراً بالعلم والمعرفة ، فاتسعت دائرة الصوفية ونظموا أنفسهم طوائف وطرقا ، وظهرت الطريقة السقطية نسبة إلى الإمام السرى السقطى ، والطيفورية نسبة إلى القطب أبو اليزيد

البسطامى ، والجنيدية نسبة إلى سيد الطائفة الجنيد ، والحلاجية نسبة إلى الشهيد الحسين بن منصور الحلاج .

وبذلك ظهرت مكانة التصوف واتجه الناس اليه بقلوبهم وأرواحهم ، وعندئذ لقى الصوفية عداوة شديدة من رجال الفقه وعلماء الكلام ومن أهل العلوم والمذاهب والنحل والملل التى عمت العراق والعالم الإسلامى .

فهاجمهم الفقهاء وقالوا لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التى جاء بها الكتاب والسنة ، وقالوا لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف ، ورد الصوفية على ذلك بأن علم الشريعة علم واحد وهو اسم واحد يجمع معنيين : الرواية والدراية ، فاذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الاعمال : الظاهرة والباطنة .

والاعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهى العبادات والاحكام ، فالعبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك ، والاحكام هى الحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض وغيرها .

وأما الأعمال الباطنة فهى أعمال القلوب وهى المقامات والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والرضا والذكر والشكر ... الخ .

كما أنا إذا قلنا علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التى

هى على الجوارح الظاهرة وهى الأعضاء ، وإذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم الباطن التى هى علم الجارحة الباطنة وهى القلب ، وقد قال الله تعالى :

(وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) [١] .

فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله بها على الجوارح الظاهرة : من فعل الطاعات ، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات ، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر ، وقد قال الله عز وجل :

(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) [٢] .

فالعلم المستنبط هو علم الباطن ، وهو علم أهل التصوف ، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك .

أما الماديون فقد هاجموا الصوفية وقالوا : إننا لا نؤمن بالروح ولا نؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، وإنما نقول إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وفساد كلامهم ظاهر.

وأما الفلاسفة فقد هاجموا الصوفية بقولهم : إننا ننكر أن

---

[١] الآية ٢٠ سورة لقمان .
[٢] الآية ٨٣ سورة النساء .

يكون التفرغ والتجرد من متع الحياة والزهد فى شهواتها ونعيمها سبيلا إلى المعرفة ، ونقول بتغليب قوى العقل وإرادته لأن انتصار العقل على الحواس هو أرفع مراتب السعادة ، وقد رد الصوفية على الفلاسفة فقالوا : إن العقل الإنسانى يخطىء ويصيب وإن الفلاسفة اختلفوا وتعارضوا ولم يتفقوا فيما بينهم على رأى واحد فى الإلهيات وغيرها فأى عقل من عقولهم نتبع ؟ وأى عقل من عقولهم هو المعصوم ؟

ولم يعبأ الصوفية بتلك المعارضات فى أنفسهم ، وإنما داوموا على مشاربهم وإيمانهم بالروح ، وهذبوا بطرقهم التى أشرنا إليها آنفا أتباعهم ونشطوهم فى عبادة الله وإيثاره تعالى على ما سواه ، ولكن تلك الطرق لم تدوم طويلا ، وفترت الهمم من جديد نسبياً ، حتى قيض الله للأمة الإسلامية فى القرنين السادس والسابع من الهجرة أربعة أقطاب كبار ، أناروا طريق الحق ، وأموا الناس فى سلوكهم إلى الله ، وهؤلاء الأقطاب قاموا من التصوف مقام الأئمة أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل من الفقه ، وظهر منهم فى العراق اثنان وهم الإمام عبد القادر الجيلانى والإمام أحمد الرفاعى وفى مصر اثنان هما السيد / أحمد البدوى والسيد / إبراهيم الدسوقى رضى الله عنهم أجمعين .

<u>أما السيد / عبد القادر الجيلانى</u> فكان أماما عالما ورعاً تقيا نقياً وكان يعلم اتباعه أول ما يعلمهم أن الله لا ينظر إلى وجوه الناس

وأحسابهم وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، وأن المراد بالعلم هو العمل به ، فالفقيه هو من عمل بفقهه ، والمحدث لا يكون محدثاً وحافظاً إلا إذا طبق الحديث على نفسه ، وأعد قلبه ليكون على قلب صاحب الحديث صلى الله عليه وسلم ، وقارىء القرآن إذا لم يعمل بكل حروف قرأه أو حفظه فقد برىء منه القرآن . وكان إلى جانب التصوف يعطيهم دروسا فى التفسير والحديث والفقه الشافعى والحنبلى وعلوم الأصول واللغة .

وأما السيد / أحمد الرفاعى : فكان رضوان الله عليه ساجد القلب أبدا ، وهو مقام فى التصوف لم يظفر به إلا رجال يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وكان لسانه لا يفتر عن ذكر الله طرفة عين ، وكان يحمل عن الناس همومهم ويعاونهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ويقول : أقرب الناس إلى الله أنفعهم لعباده ، وكان شعار حياته الحب الذى يملأ قلبه وروحه ووجدانه ، ولذلك كان فانياً فى محبته لله تعالى ، وكان مجلسه كما يقول رجال التاريخ مدرسة للعلماء ورباطا للفقراء ، وروض للسالكين ، وحجة للعارفين ، وكان يقول : (طريقى دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، ونفس بلا شهوة . وقلب عامر بالمحبة) .

وأما السيد / أحمد البدوى : فكان يقول لأتباعه : (ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف ، إنما التصوف أعمال ومجاهدة

وأخلاق والأخذ بأيدى الناس إلى خير الدنيا والآخرة) .

وكان رضى الله عنه يؤمن أن باب الحياة الأكبر هو حب الله ومن كلماته : (أحببه يحبك أهل الأرض والسماء ، وأطعه يطع لك الجن والإنس ويجف لك البحر ويخضع لك الهواء).

وقد شهد بفضله شيخ الإسلام ابن دقيق العيد بعد أن وقع بينهما حادث طريف وهو أن الشيخ سعى إليه ليحكم فى أمره بنفسه أن ذاع صيته فلما قابله لم يحفل به سيدى أحمد البدوى كما كان يتوقع فقال فى نفسه إنه مجنون ، فرد على خاطره هذا سيدى أحمد البدوى بيته المشهور:

مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أعتابهم يسجد العقل

فلم يسع شيخ الإسلام إلا أنه اعتقده وقبل يده وأقر بعلمه بعد أن باحثه فى عدة مسائل .

وكان ملك مصر (الظاهر بيبرس) يجله لفضله ويحترمه ويقدمه على علماء مصر جميعاً ويسعى إليه ويتبرك به ويقول : (من واجبات الملوك أن يسعوا إلى العلماء ورجال الله) .

<u>وأما السيد إبراهيم الدسوقى</u> : فيقول عنه رجال الطبقات إنه عالم الأولياء وولى العلماء ومن كلماته قوله : (لا يكمل الصوفى حتى يكون محباً لجميع الناس ، مشفقاً عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال على خلاف ماذكرنا فهو كاذب) .

خصائص الصوفية :

جاء فى كتاب (اللمع) للأمام الطوسى ما خلاصته أن الصوفية اتفقوا مع أصحاب الحديث والفقهاء فى معتقداتهم وقبلوا علومهم ولم يخالفوهم فى علومهم ورسومهم ، ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث فى الدراية والفهم فإنهم راجعون إليهم فيما استشكل عليهم فى الأحكام الشرعية ، فإذا اجتمعوا فهم فى جملتهم قيما اجتمعوا عليه ، فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية فى مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم ، احتياطا للدين وتعظيما لما أمر الله به عباده واجتنابا لما نهاهم الله عنه ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والسعات وركوب الشبهات ، لأن ذلك تهاون بالدين ، ثم انهم بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة .

وتفرد الصوفية بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بترك مالا يعنيهم ، وقطع كل علاقة تحول بين مطلوبهم ومقصودهم ، وليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تبارك وتعالى ، والاختصار على مالابد منه من الملبوس والماكول والمشروب وغير ذلك ، واختيار الفقر عن الغنى اختيارا ، ومعانقة القلة ، ومجانبة الكثرة ، وإيثار الجوع على الشبع ، وترك العلو والترفع ، وبذل الجاه

والشفقة على الخلق ، والتواضع للصغير والكبير ، والإيثار فى وقت الحاجة إليه ، وحسن الظن بالله ، والإخلاص فى المسابقة إلى الطاعات ، والمسارعة إلى جميع الخيرات ، والتوجه إلى الله تعالى ، والأنقطاع إليه ، والعكوف على بلائه ، والرضا عن قضائه ، والصبر على دوام المجاهدة ، ومخالفة الهوى ، ومجانبة حظوظ النفوس ، والمخالفة لها ، إذ وصفها الله تعالى بأنها أمارة بالسوء ، والنظر إليها بأنها أعدى عدوك الذى بين جنبيك ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أعظم النعم التى اختصوا بها دوام المراقبة وهو أعلى مراتب الإحسان .

ومصداقا لما يقوله الإمام الطوسى من أن الصوفية اختصوا بدوام المراقبة ، نلاحظ أن كلامهم يفيد دوام المرقبة والتعلق بالله تعالى ، فمثلا يقول الإمام ذو النون المصرى فى مناجاته لله تعالى : (إلهى ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف الشجر ، ولا إلى خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولاتنغم طل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنك ليس كمثلك شىء) .

ويقول الإمام الشبلى رضى الله عنه :

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت معلوماً بغير تكلم ولاحظت موجودا بغير عيان

وتقول المحبة " رابعة العدوية " رضى الله عنها :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ويقول الشهيد الحلاج رضى الله عنه :

والله ماطلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقرون بأنفاسى

ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثى بين جلاسى

مالى وللناس كم يلحوننى سفها دينى لنفسى ودين الناس للناس

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

لى فيكمو أمل منه أرى صلتى يا خير من بفؤادى العمر ما برحا

إذا سعيت وجنح الليل يقعد بى رأيت صبح هواكم للظلام محا

لو قيل القلب ما ذا أنت مقترح لم يلق غير حمى الرحمن مقترحا

<u>معنى السبق بالخيرات عند الصوفية :</u>

للصوفية أقوال طريفة وإشارات عالية فى معنى قوله تعالى :

(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير *

جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير) [١] .

فقد قال بعضهم : (الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعاً فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب) .

وقال بعضهم : (الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق) .

وقال بعضهم : (قدمت الآية الظالم لكثرة الفاسقين من الناس وغلبتهم ، وثنت بالمقتصد لأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، وختمت بالسابق لأن السابقين أقل من القليل) .

وقال بعضهم : (جمعهم الله سبحانه وتعالى فى الأصطفاء إزالة للعل عن العطاء والاصطفاء يوجب الإرث وليس الإرث يوجب الاصطفاء ، ولذلك قيل فى الحكمة : صحح النسبة ثم ادع فى الميراث ولهذا جمعهم فى دخول الجنة لأنه ميراث ، والعاق والبارفى الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ، والعاصى والمطيع مقرون بوحدانيته تعالى وبحرمه كلمة الإخلاص : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

---

[١] الآيتان ٣٢، ٣٣ سورة فاطر .

مآخذ منسوبة للصوفية والرد عليها :

يأخذ بعض الناس على الصوفية أموراً نوردها فيما يلى :

١ – وحدة الوجود :

نسب إلى الصوفية أنهم يقولون بوحدة الوجود ومحال أن يذهب الصوفية إلى وحدة ذات فى ذات وان جاء فى بعض كلماتهم عبارات مشبهة لمن لم يفهمها وهم يقصدون بها قرب الفضل باللطف على حد تعبيرهم ، بمعنى الغياب عن المحسوسات التى تحجب العبد عن ربه ، كما تدل على ذلك صراحة أقوالهم العديدة .

وإليكم مثلا ما قاله الإمام أبو الحسن النورى الصوفى : (فأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ماتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فقرب هو فى نعته محال ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه ، يخص به من يشاء من عباده وهو قرب الفضل باللطف) .

وقرب الفضل باللطف هذا هو مقام التصوف وله معان يضيق نطاق النطق عنها ، كما يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه ، أو تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفها ، كما يقول الإمام الشاذلى رضى الله عنه .

ويعجبنى فى هذا المقام تعبير لسيدى الإمام أبى عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه يقول فيه : (قريب غير ملتصق بعيد غير مستقصى ، لا إله إلا هو الكبير المتعال) .

ومن كلمات الشبلى قوله : (كيف يصح لك التوحيد ، وكلما ملكت شيئاً ملكك ، وكلما أبصرت شيئاً أسرك) ، وقوله : (ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق) ، وقوله : (قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة ، ومستبشرة إليه بأجنحة المحبة) .

ومن دعوات سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه قوله (وخذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى ، ومحبوباً بحسى) .

وقد كان أبو سعيد الخراز الصوفى فى البادية فوقع له أنس بالله فقال :

أتية فلا أدرى من التيه من أنا

سوى ما يقول الناس فى وفى جنسى

أتية على جن البلاد وإنسها

فإن لم أجد شخصاً أتية على نفسى

قال فسمع هاتفاً يرد عليه :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده

ويفرح بالتية الدنى وبالأنس

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة

لغبت عن الأكوان والعرش والكرسى

وكنت بلا حال مع الله واقفا

تصان عن التذكار للجن والإنس

ويقول الإمام الجنيد : (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه) ، ويقول الشبلى : (ما رأيت شيئاً إلا الله) .

وهى الواقع حالة محبة تذهل المحب عن كل ما سوى محبوبه فيرى الصوفى بعين بصيرته فى منطقة اللطف والفيض والإلهام التى يجذبه الحق بفضله إليها مالا يراه الناس بعين أبصارهم .

ويقول معروف الكرخى : (إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى إلا الله) .

ويقول الحلاج : (حججت فرأيت الكعبة ولكنى لم أر رب الكعبة ، ثم حججت ثانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، ثم حججت ثالثة فرأيت رب الكعبة ولم أر الكعبة) .

ويذكرنى ما يقوله الشهيد الحلاج بقول صوفى آخر طاف حول البيت فقال مناجياً رب العزة :

إليك حجى لا للبيت والحجر ولا طوافى بالأركان والجدر

وهذه كلها مذاقات تقصر عنها العبارات .

٢ – **الخلوة والتقشف :**

إن الصوفية حين يجنحون إلى الخلوة والتقشف لا يقصدون بذلك تحريم ماأحله الله من الطيبات ولكنهم يقصدون تربية النفس وتهذيبا بمخالفة الحظوظ التى تكسبها الزهو والعجب ، وهى تلابس عامة الناس . وقد اختلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل البعثة ، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان بعد البعثة .

على أن الصوفى إذا نضج فى تربية نفسه لبس ما شاء وأكل ما شاء ، لأنهم يقولون : (إعراف الله ثم كن كيف شئت) ، والناضج منهم يخرج للناس ويمشى فيهم بنوره ويعاشرهم وهو فى خلوة قلبية .

والخلوة والتقشف لا يصلحان إلا لمن كان عنده استعداد فطرى لأخذ نفسه بالشدة ، فإذا تمت له سياسة نفسه وقهرها فى حظوظها وملذاتها الفانية صلح لأن يكون إماما يؤدى وظيفة اجتماعية هامة وهى دعوة الناس إلى الحق بالحال والمقال ، وقد يغنيه الحال عن كثير المقال ، ومن حكمهم فى هذا الباب (حال واحد فى ألف خير من كلام الف فى واحد) .

على أن الصوفية حين يتقشفون فى الملبس والمأكل لا يبتدعون شيئا وإنما ينظرون إلى تقشف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته واكتفائه بالملبس الضرورى البسيط والمأكل الميسور ، حتى

لقد روت سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كنا نرى الهلال والهلال والهلال ولا نوقد ناراً ، أى أنهم لا يطبخون ، ولما سئلت عن غذائهم بلا طبخ ، قالت :(كنا نعيش على الأسودين التمر والماء) .

وشكوى نساء النبى صلى الله عليه وسلم من خشونة العيش معروفة وقد نزل فيها قوله تعالى :

(يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) [١] .

وقد صبرن رضى الله عنهن على عيشة التقشف وأردن الله ورسوله والدار الآخرة وفرح بذلك حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى رؤى الفرح فى وجهه .

وتقشف رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أصحابه الموسرين إلى أخذ أنفسهم بالتقشف حتى لقد أنفق سيدنا أبو بكر الصديق

---

[١] الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

رضى الله عنه كل ماله فى سبيل الله ، وأنفق سيدنا عمر رضى الله عنه نصف ماله ، وجهز سيدنا عثمان رضى الله عنه جيش العسرة واشترى بئر رومه ووهبها للمسلمين ، وكان يقول لولا أنى خشيت أن يكون فى الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته ، وقد أوقف سيدنا على ما ملك فى سبيل الله ، وجاء فى وصف السيدة الزهراء بنت حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ملابسها .

وقد روى عقبة بن علقمة فقال : دخلت عَلَى علىَّ رضى الله عنه فإذا بين يديه طعام خشن فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا فإن لم آخذ نفسى بما أخذ به نفسه خفت ألا ألحق به .

وكانت بيوت الصحابة أقرب إلى الأكواخ منها إلى البيوت ، فعاشوا عيشة بسيطة ، وتصدقوا على المجتمع بما فضل من أموالهم ، بل وآثروهم فى بعض الأحايين حتى قال الله فيهم : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجه مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [١] .

ولا شك أن الصوفية تأثروا بذلك فى مسلكهم ، لأنهم كما قلنا يأخذون الدين بقوة ، ويحاولون أن يبلغوا فيه الذروة . حتى لقد روى الإمام القشيرى أن الفقيه بن بشار كان ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلى ، ثم جاء إليه ليجادله ويمتحنه ، فقال له : كم من خمس من الإبل – يريد الزكاة – فسكت الشبلى ، فأكثر ابن بشار عليه ، فقال له الشبلى : فى واجب الشرع شاة وفيما يلزم أمثالنا كلها ، فقال له ابن بشار ، هل لك فى ذلك إمام ؟ قال : نعم ، قال من ؟ قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث أخرج ماله كله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك قال : الله ورسوله .

فرجع ابن بشار إلى أصحابه الفقهاء متغير الوجه ، فلما سألوه عن أمره قال : لقد أضعنا حياتنا فى المجادلات ، وذهب الصوفية بالخير كله .

٣- <u>اعتماد الصوفية على الخواطر القلبية :</u>

رأيتم مما سبق بيانه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لوابصة الصحابى استفت قلبك ، وهذا يؤيد مسلك الصوفية فى الاعتماد على خواطرهم القلبية التى صفت من الكدورات الأخلاقية والغفلات

---

[١] آية ٩ من سورة الحشر .

المظلمة ، والإلهام مؤيد فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

(فألهمها فجورها وتقواها) [١] .

كما أن العلم اللدنى ورد فى القرآن فى مثل قوله تعالى :

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) [٢] .

وفى قوله تعالى :

(وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) [٣] .

على أن لا بد لنا أن نبرز أن من مبادى الصوفية أن يطرحوا الخواطر القلبية جانباً إذا تعارضت مع الكتاب والسنة وها هو الإمام أبو الحسن الشاذلى يقول فى هذا المقام : إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : أن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف والإلهام .

---

[١] آية ٨ سورة الشمس .
[٢] آية ٦٥ سورة الكهف .
[٣] آية ٤٠ من سورة النمل .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،(من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم) وقال الله تعالى :

(إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) [١] .

٤ – <u>الكرامات :</u>

يعيب الفقهاء على الصوفية أمر الكرامات ، ولكن الصوفية يستدلون على الكرامة وخوارق العادة بما ورد فى القرآن الكريم من مثل ما وقع لأهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا وهم نيام بلا آفة أو غذاء ، وبما أكرمت به مريم عليها السلام ، وبما وقع من الذى عنده علم الكتاب اذ أحضر لسيدنا سليمان عرش بلقيس فى أقل من طرفة عين . وهؤلاء جميعاً ليسوا من الأنبياء وما وقع لهم هو من الكرامات .

على أن الصوفية مع اعتقادهم بالكرامات يقولون أن كل كرامة للولى هى معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الولى إنما يكرمه الله بها لصدق متابعته للرسول صلى الله عليه وسلم ليربط على قلوب

---

[١] آية ٢٨٢ سورة البقرة .

أتباعه من المريدين ويزيدهم اعتقادا فى شيخهم . غير أنهم يقولون أنها عندهم ليست نهاية المقامات ، وإنما هى مزية يختص بها البعض ولا تقتضى الأفضلية ، وقد تكون للاختبار والامتحان . ولذلك يخافها بعض الصوفية ، وقد كان سيدى أحمد البدوى يقول : (إن الولى يستر كرامته كما تستر المرأة خرقة الحيض) وكان الإمام الجنيد يقول : (مشى رجال على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم) .

ثم أن الصوفية يقولون : (إن الكرامة ليست من لوازم الولى ويكفيه فى نظرهم كرامة أن يكون على استقامة) .

٥- <u>السلبية :</u>

يرمى بعض الناس الصوفية بالانطواء والسلبية ولعلهم يقعون فى هذا الخطأ من نظرهم إلى بعض الجهلة الذين يتزيون بزى الصوفية شكلا وأفئدتهم هواء ، فضلا عن بطالتهم واحتيالهم ، ولكن الناظر فى تاريخ التصوف يرى أن أئمة الصوفية أدوا لهذا الدين خدمة إيجابية جليلة ، فقد صانوا على الأمة الإسلامية روح دينها ولم يقفوا فى تطبيق الدين عن الرسوم ، بل هذبوا النفوس وربوا القلوب وكل من صحبهم أخذ منهم بطرف على قدر جهاده وحسن صحبته ، ولا زالت دعوتهم قائمة بالحق إلى يومنا هذا ، وسيظلون قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون .

وإلى جانب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإرشاد الناس

إلى الأخلاق العالية الزكية فانهم لم يتخلوا عن كلمة الحق فى وجه السلطان الجائز ، فحينما قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى لابن البيطار الصوفى فى كبرياء الملك : أنا عبد الملك فارفع حوائجك إلى ، قال له فى عزة : وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا لمن أنا وأنت له عبدان .

وعندما عصفت الحروب بالمتوكل العباسى نادى أهل الفتوة من الصوفية فجاءوه من كل مكان وكون منهم جيشاً كبيرا حمى الإسلام وصان بلاد المسلمين .

ولما طغى المماليك فى بلادنا ثار شيخ الإسلام العز بن عبد السلام الصوفى الكبير وأمر بالقبض على المماليك وأفتى ببيعهم وضم ثمنهم إلى بيت المال لأنهم خانوا أمانة المسلمين وبالفعل تم بيعهم .

وقد دخل رضى الله عنه خيمة الشاذلى وهو يدرس لأتباعه ومريديه فى ساحة الحروب الصليبية فاستمع إليه مطرقا ثم خرج صائحا هذا كلام قريب العهد من الله ، هذا كلام إلهام الله وهداه .

وقد كتب الإمام الغزالى إلى ابن تاشفين ملك المغرب يقول له : (إما أن تحمل سيفك فى سبيل الله لنجدة إخوانك فى الأندلس ، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك) .

وقال الإمام محى الدين بن عربى شيخ الصوفية الأكبر للملك الكامل حينما تهاون فى قتال الصليبيين : (إنك دنىء الهمة والإسلام لن يعترف بأمثالك فانهض للقتال أو نقاتلك كما نقاتلهم) .

ويحدث الجبرتى بأن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر كانت على أيدى الطرق الصوفية وشيوخها .

ويقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه : (من لبس جديداً أو أكل هنيئاً ، أو ضحك فى نفسه ، أو سعد فى بيته ، والأمة الإسلامية فى ضيق أو شدة فقد برىء منه الإسلام) .

وفى الحديث النبوى الشريف : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) .

والقائم بينكم الآن فى هذه المحاضرة ما انتفع فى دينه إلا بصحبة السادة الصوفية ، فقد أدركت بعضهم وأخذت عنهم ووقفت من أحوالهم على أحوال الماضين ، فقربوا لى فهم ما غمض فى الكتب ولمست فيهم علما ربانيا يفوق الوصف فى الشريعة والحقيقة ، وسجلت لهم حكما لا تقل سموا عن حكم الأسلاف الصالحين ، وقد كانوا يكسبون عيشهم بالكفاح والجهاد فى عفة وأمانة ، ولم يسألوا عن هدايتهم أجرا ، وقد تركوا أثرا واضحا فى تربية الآلاف فى دينهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجزاهم عنا وعن الإسلام والمسلمين كل خير . وإنى أنوه برجلين عارفين كان لهما على فضل كبير لا يجزيهما عنه إلا الله تعالى وهما شيخى العارف بالله السيد عبد السلام الحلوانى وتلميذه الأول العارف بالله الشيخ على عقل وهما من خلفاء قطب زمانه وإمام عصره سيدى الشيخ محمد أبى خليل ساكن ضريحه الأنوار بالزقازيق .

٦- <u>أخذ العهود على المريدين :</u>

يظن بعض الناس أن أخذ المشايخ العهود على المريدين إنما هو بدعة لا أصل لها فى الدين ولكن القرآن الكريم والسنة المطهرة يدلان على ان حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أخذ العهد على بعض الصحابة جماعة وفرادى ، فقد نوه القرآن الكريم ببيعة الشجرة فى قوله تعالى :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) [١] .

كما قال تعالى :

(يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) [٢] .

---

[١] آية ١٨ سورة الفتح .
[٢] آية ١٢ سورة الممتحنة .

ومعلوم أن المعاهدين من الرجال والنساء فى هاتين البيعتين كانوا مؤمنين ومؤمنات ، وبيعة العقبة للأنصار قبل الهجرة معلومة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد روى الإمام أحمد والطبرانى وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقن أصحابه جماعة وفرادى ، فأما تلقينهم جماعة فقد قال شداد بن أوس : كنا عند النبى عليه الصلاة والسلام فقال عليه الصلاة والسلام هل فيكم غريب يعنى من أهل الكتاب ، قلت لا ، فأمر بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقلوا لا إله إلا الله ثم قال الحمد لله اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد ثم قال ألا أبشروا فإن الله غفر لكم ، وأما تلقينهم فرادى فروى يوسف الكروانى وغيره بسند صحيح أن عليا رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده ، وأفضلها عند الله تعالى ، فقال عليه الصلاة والسلام : (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)) ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت بها ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : (ياعلى لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله ، فقال على كيف أذكر يارسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام غمض عينيك واسمع عنى ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع فقال : لا إله إلا الله ثلاث

مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلى يسمع ثم قال على لا إله إلا الله كذلك والنبى عليه الصلاة والسلام يسمع .

٧- <u>تعدد الطرق واختلاف الأوراد</u> :

يقول البعض إن تعدد الطرق الصوفية فرق كلمة المسلمين وبذر فيهم بذور الشقاق ، ولكن الأئمة الصادقين من السادة الصوفية لا يدعونه إلى فرقة الكلمة لأنهم يخافون الله ، وإنما يقع التعصب وتقع الفرقة من الدهماء والبسطاء عن جهل وحماقة ، وحرام أن يسمى هؤلاء بالصوفية ، وأن يكون جهلهم حجة على الصوفية .

ولكن دعوة الطرق واحدة لأنها تدعو إلى الله والتمسك بأحكامه وإلى التأدب بالآداب النبوية . وإن اختلفت أوراد الطرق بعضها عن بعض فإن الغاية لا تختلف والهدف واحد .

وقد أمرنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه أن أزور سيدى العارف بالله الشيخ عبد الخالق الشبراوى حين كان إماما لمسجد الفتح وقال لى أنه ولى من أولياء الله فزره وأبلغه سلامى ، فكنت أتردد على زيارته ، وطريقته خلوتية وطريقتنا خليلية (بيومية) .

وكثيرا ما رأينا الكمال والتربية العالية فى اتباع الأئمة الصادقين من أهل العلم والعمل والهمة.

وكما يكون لكل مسلم فقيه يقتدى به فكذلك لكل صوفى شيخ يرشده فى سلوكه إلى الله ، وقد قالوا : إن المرء إذا سلك وحده فى سيره إلى الله تعرض لغواية الشيطان وإن سلم منها يكون كالشجرة التى تنبت بنفسها تورق ولا تثمر ، ولكن الذى يسلك على يد عارف بالله يكون كاالشجرة التى يتعهدها بفنه زارع ماهر فانها تؤتى ثمرها كل حين بإذن ربها .

وقد قال أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى فتوحاته الملهمة فيما نقلته عنه فى هذا المقام:

إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى

يؤدبها بالروح زاغت عن السير

ولا يعبر البحر الخضم ونوأه

سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر

ولولا اتصال الكهرباء بأصلها

على موجة التيار ما نورها يسرى

ويرى الصوفية أن الشيخ المربى ينبغى أن يتوافر فيه ذوق صريح ، وعلم صحيح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة .

وقد قالوا فى وصفه : (هو ذلك الذى يربيه الحق من صغره فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو

عن الرذائل ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تعلو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، ساع فى طلب الفضائل ، خائف من النقائص فلو تصورت التوفيق والإلهام الربانى كيف يأخذ بيده إن عثر ويمنعه من الخطأ إن هم ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستر عمله حتى لا يراه منه ، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه) .

وترون مما تقدم أن التربية الصوفية لا تؤتىثمرها إلا على يد من اتصفوا بالوصف المتقدم ، فإن لم يتوافر هذا الوصف فى الشيخ لا ترى الثمرة فى اتباعه ولا يكون العيب عيب الصوفية ولا التربية الصوفية وإنما عيب المتبوع لأن العلة كما يقال تدور مع المعلول وجودا وعدما .

٨- <u>مجال الذكر</u> :

يعيب الناس أن يجمع الشيوخ الصوفية أتباعهم فى حلقات الذكر ليذكروا الله ببعض أسمائه الحسنى فى شكل جماعى فيقولون مثلا الله الله بصوت مرتفع أو منخفض ويقولون إن هذه بدعة فى الدين لم تعرف فى السابقين الأولين ، وأرد على ذلك بأن هذه الحلقات لا تصادم نصاً فى الدين ولا تخرج عما دعا إليه القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، بل ان القرآن الكريم يحض على كثرة الذكر فى مثل قول الله تعالى :

(والذاكرين الله كثيراً والذاكرات اعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) [١] .

والذكر له صور كثيرة فتلاوة القرآن ذكر ، والاطلاع على السنة ذكر ، وذكر الله بأسمائه ذكر ، وقراء قصص الصالحين ذكر ، والتفقه فى دين الله ذكر ، والتفكر فى خلق السموات والأرض ذكر ، والندم على المعصية ذكر ، وشكر النعمة ذكر ... الخ .

وقد جعل الله للعبد أسباباً لا تعد يصل بها إلى الحضرة الربانية ، وتلك الأسباب ظاهرة وباطنة فالظاهرة مثل العبادات المفروضة ، والباطنة مثل مراقبة الله تعالى وشعور العبد فى جميع أوقاته أو غالبها أنه بين يدى الله تعالى وأن الله معه وناظر إليه وشاهد عليه ، والعبادات لم تفرض لتكون آلية المظهر ، ولكن ليتطهر بها العبد فيما بينه وبين ربه ، فيترك المعاصى ، ويتحلى بالفضيلة ، ويجتنب الرذيلة .

والعبد فى تحصيل أى منفعة لا بد له من التدرج فى الامور الدينية والدنيوية ، فتحصيل العلم بالتدرج ، واحتراف التجارة أو الصناعة بالتدرج ، والسالك إلى الله أشد أحتياجا للتدرج ، فيبدأ بذكر اللسان الجماعى فهو مدعاة لشحذ الهمة والتنافس ، والجماعة رحمة

---

[١] آية ٣٥ سورة الأحزاب .

كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكل اجتماع على الخير والبر والتقوى محمود فى الشرع بل ومأمور به فى مثل قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) [١] .

ولا شك أن ذكر اللسان الجماعى للعوام أنفع إذ يصلون به إلى ترقيق القلوب وانفساحها لحب الله والتعلق به سبحانه ، فاذا جلسوا بعد مجلس الذكر إلى استماع قرآن أو إلى أمر بمعرف ، أونهى عن المنكر ، ذاقوا حلاوة ما يسمعون ، وتهيئتهم على هذا الوجه أيسر لهم وأخف مؤونة عليهم .

أما أن أوائل المسلمين لم يألفوا هذه الحلقات ، فانهم كانوا فى غنى عنها بالنور السائد فيهم والذى ورثوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو اصحابه من بعده أو التابعين من بعد أصحابه ، أما وقد فترت الهمم بعد ذلك كما قدمنا ، فلا بد من شحذها بكافة الوسائل الممكنة التى تدفع المؤمن للهمة فى طلب الله من كل باب مباح شرعا .

وأنى لا أنسى فى هذا المقام ما قاله أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رفع الله درجته فى الأولياء فى هذه المناسبة :

وقالوا الجماعة فى ذكركم وأنتم قيام مقام البدع
فقلت نعم وهى ما نبتغى وفى عرفنا أحسن المتبع
أرى بدعة لا تصادم فرضا وتثمر خيرا أجل الورع

---

[١] آية ٢ سورة المائدة .

أتانا الكتاب بذكر الإله وحسبك فى نصه ما سطع
وتنشط فى الحركات الجسوم إذا سجد العبد أو إن ركع
وأن الرجال بها كالغصون تميل مع الريح لا تمتنع
وأن الجماعة مفروضة وحسبك فرضا صلاة الجمع
فلا تحسبونا جهلنا الحبيب ولكننا باسمه نرتفع
ونعرف عند اليمين ونترك عند الشمال الجزع

٩- <u>الإنشاد على مجالس الذكر</u> :

ليس المقصود بالإنشاد التغنى فى ذاته وانما المقصود به تنشيط الذاكرين ، ولا يغنى على مجالس الذكر إلا بالكلام المرقق للقلوب كالتوحيد ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم ولوم النفس ... الخ ، وكثيرا ما انتشى السامعون لهذا الإنشاد طربا ودخلوا حلقات الذكر حبا ثم انخرطوا فى سلك الطريق لأن الإنشاد إن خرج من قلب ذاكر حل فى القلوب وخاصة ذلك الذى يجىء على شكل الإلهام ، ولقد رأيت الناس يتيهون وهم يستمعون للعارف بالله أستاذى الشيخ على عقل أوسع الله له فى رضوانه وقد سمعنا منه حكما هى الدر بل أغلى ، والنجم بل أعلى ، والشهد بل أحلى ، فى كلام من الشعر سهل ممتنع ، ولا أنسى إنى كنت أكتب بعض ما أسمعه منه فيهتز القلم فى يدى من تأثر روحى بكلامه السماوى ، وأحس بمثل دبيب النمل فى جسدى .

وطالما رأيت الناس يهبون وقوفا على بكرة أبيهم على غير إرادة

منهم حين يهيمهم كلامه فى حب الله من مثل قوله :

ألوذ بالله لا ابغى به بدلا ومن يلذ بجلال الله يسعده
أرضى به وهو يرضينى ويغمرنى بعفوه وبهذا العلم أعبده
أخلى فؤادى له من كل شائبة ان عشت أو مت اعضائى توحده
إذا سهرت فما أسهرت عن ملل لكنه الحب يدعونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى وما ألفت روحى سواه تجافى الجفن مرقده
إذا مددت يدى لله أسأله مدت الى بمعنى فضله يده

وقوله :

فتشت كل الخلق عن علم فلم أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئته وجعلت ذكرى ذاته منوالى
يانفس انى لا أمالىء غيره قومى الى حوض الكريم تعالى
الله قربنى اليه بذاته لم يرض لى فى الحب أى تعال
إن الذى فهم المحبة قلبه فى القدر من بين البرية عال

وقوله :

يا هذه الأيام إنى ليس لى إلا رسول الله سراً ظاهراً
أنا كل شىء فى الحياة تركته ووقفت نفسى للنبى مثابرا
والوقف لا يشرى وليس يباع فى حال يدوم إلى القيامة حاضرا
أنا باسمكم والى اسمكم ولو سمكم فى رسمكم قلبى على الشعرى سرى

أنا إن أكن جسما بعيداً إنما روحى من النجوى تفيض سرائرا
قل لى عليك صلاتنا وسلامنا حتى أعود على المحبة شاكرا

وقوله :

إنى على أعتابكم لم أرض غير الحب مشرب
حريتى رق لكم وهى المقام وذاك أقرب
قالوا بأنك لم تكن فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى عبد على الأبواب أحسب

ولا يخفى عليكم أن الإبل تسمع الحداء فتجد السير وقد كان حداء الإبل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد قال عليه الصلاة والسلام لأنجشة حادى الإبل حينما أسرعت الإبل من حدائه (رفقاً أنجشة بالقوارير) .

وقد حدث أن شكا بعض الرعية لمولانا عمر بن الخطاب من رجل عينه إماماً عليهم وقالوا لسيدنا عمر رضى الله عنه ان هذا الإمام يغنى بعد الصلاة ، فسأله فصدق على كلامهم ، فأراد أن يعرف نوع غنائه فقال له : ماذا تغنى به ؟ فقال :

وفؤادى كلما عاتبته عاد للذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهيا فى تماديه فقد برح بى
ياقرين السوء ما هذا الصبا فنى العمر كذا فى اللعب
وشباب بان منى فمضى قبل أن أقضى منه أربى
نفس لا كنت ولا كان الهوى اتق المولى وخافى وارهبى

فما كان من أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إلا أن قال لهم من كان منكم مغنيا فليغن هكذا.

١٠- الذكر على المسابح :

كذلك يأخذ الناس على أهل التصوف أنهم يذكرون الله على المسابح ويقولون لا فائدة فى قلب يحركه الخشب ، وفاتهم أن القلب لا يتحرك بالخشب ، وإنما يتحرك بأسماء الله الحسنى التى تتلى عند التسبيح .

والمسابح أداة من أدوات التسبيح لتعين على الإكثار منه ، وقد عيب على الإمام الجنيد أنه يتخذ المسبحة وكلموه فى ذلك فقال : هذه سبيل وصلت بها إلى الله فلا أتركها .

وقد ورد فى الحديث الشريف (نعم المذكر السبحة) وهى كل ما يسبح به من أصابع وحصى ونوى ، وقد كان التسبيح على الأصابع والحصى والنوى معروفا فى صدر الإسلام ، وكان لأبى هريرة رضى الله حبل به ألف عقدة يستغفر الله عليه ، وقد كلموه فى ذلك وقالوا : إنك تستغفر الله كثيراً ، فقال : على قدر ذنوبى .

أما العدد على المسابح فقد قال المتعرضون عليه انهم يعدون على الله ويمنون عليه ، وليست هذه نية القوم فى العدد ، إنما هم يعدون على أنفسهم ليعرفوا تقصيرها بين وقت وآخر ويستنهضوها فى

الإكثار من الذكر ، كل بحسب إرشاد شيخهم لهم . وقد قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم تسحبون وتحمدون وتكبرون عقب كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، كما قال صلوات الله عليه : (إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة) .

والشيخ فى الدين عند الصوفية مقدم على الأب وأمره نافذ فيهم ، لأن الشيخ يربى الروح والأب يربى الجسد . وقد قال بعضهم فى ذلك :

نسب أقرب فى شرع الهوى بيننا من نسب من أبوى

وقد مر عليكم شروط الشيخ العارف بالله الذى ينتفع منه المريد السالك إلى الله .

وقد قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام للخضر عليه السلام : (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا) .

١١- حبهم لأولياء الله :

يعيب الناس على الصوفية أنهم يحبون أولياء الله ، وفاتهم أنه حب فى الله ، فبحب الله لأوليائه أحبهم الصوفية ، وبمدحه تعالى لهم مدحوهم ، وقد بلغ من معارض الصوفية أنهم يشبهون زائرى أولياء الله بعباد الأوثان ، ولا وجه للتشبيه إذ الفارق كبير جدا بين العبادة والحب .

ولا شبهة فى أن الصوفية قوم ذاقوا حلاوة التوحيد ، وباعوا

فى سبيل الله كل غال ورخيص ، وحاربوا من أجل الخواطر والعوائق ، فلم يبق وجه لأن يحمل حبهم للأولياء على الوثنية أو الشرك ظلما وزورا .

وكيف يخاف على الصوفية الشرك وهم يؤمنون بالقرآن ويتعمقون فى فهمه وهو ناطق بالتوحيد الخالص ، لا بل إن عامة الناس أبعد ما يكونون عن الإشراك بالله وإن أخذ عليهم بعض الظواهر أو الكلام عن جهالة ، ولكن الله ينظر إلى القلوب والنيات وهو عليم بذات الصدور وهؤلاء نعلمهم ولا نكفرهم . ألست ترى أن ساجدين يسجدان على شكل واحد وهذا نيته لله والآخر نيته للصنم ، فالأول من أهل الجنة ، والأخر من أهل النار ، ومرد ذلك إلى النية . ومن رحمته تعالى قال :

(لا يؤاخذ كم الله بالغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم) [١] .

وإذا كان المسلمون عامة ، والصوفية خاصة ، لم يشركوا بالله رسول الله مع علو مقامه وسمو منزلته ، فكيف يدور بالاذهان أنهم يشركون أولياء الله مع الله ، وهم أدنى بكثير من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[١] آية ٢٢٥ سورة البقرة

١٢- السريانى :

تنطق ألسنة المتصوفة أحيانا بكلمات على غير إرادة منهم ولا سبيل لهم إلى دفعها وردها ، وتعرف هذه الكلمات بالسريانى لأنها تكون فى كثير الأوقات غريبة على السمع وفيها عجمة ، وفى أوقات قليلة تكون عربية مفهومة ويقال عنها سريانى من باب التغليب .

فاذا صدرت من أرباب الأحوال الصادقين كانت خفيفة على قلوب السامعين ، أما إذا كانت متكلفة ومصطنعة تقليدا فانها تكون ثقيلة عليهم وممجوجة وتوجب مقت الله على قائليها .

وكثيرا ما سمعنا السريانى من الذاكرين الصادقين فلم ننكره عليهم لثقنا فيهم ، وهو يخرج من أفواههم قهرا عنهم من باب فيض الكأس عند امتلائها فى حالة الوجد الناشىء عن الذكر وأسراره العظيمة .

ومنذ سنين كان يجرى على لسانى (إنى مع الله) فاعترض على صديق فاضل وأديب يشار اليه بالبنان وهو الأستاذ محمد جاد الرب مفتش التربية وهو بينكم الآن وقال فى اعتراضه لماذا تتكلم بهذا ونحن فى جمع كبير (وكنا فى سهرة رمضان ببلدنا) فقلت وهل على من حرج فيما قلت ؟ قال : نعم ، أنت رجل مثقف ولك مكانتك ولا يستساغ أن تتكلم بلا مناسبة ، قلت : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء والحمد لله أن أنطقنى كلمة إيمان . فلم يقنع وانتقدنى فى نفسه ،

وأراد الله أن يثبت فؤاده الصافى بآية ، فلما ذهب إلى داره قرب السحور فتح بابه فاذا به يقول قهرا عنه فى ردهة الدار (إنى مع الله) فآمن بالسيريانى وجاءنى فى اليوم الثانى وقال إنى رأيت البارحة عجبا ، قلت له خيرا قال عذرتك لأن الله أنطقنى كما أنطقك (إنى مع الله)

ولذلك آليت على نفسى أن أسجلها شعرا وقلت :

إنى مع الله بالتوحيد وهو معى

بالنور فى ملكوت الحب يهدينى

ثم سمع منى بعد ذلك (نور النبى كبير جدا) فسجلها قائلا :

نور النبى كبير جدا به استنير

ثم سمع منى (أنا فى حماك) فسجلها بشعر صوفى رائع يهزنى كلما رددته :

أنا فى حماك ومن حماك إلى حماك

وعن حماك الدهر لا أتحول

١٣- <u>شطحات الصوفية</u> :

تصدر من الصوفية كلمات ينكرها الذين لا يفهموها مرادهم منها يقولونها لأنفسهم لا للناس لمعنى خفى فى مذاقاتهم وفهمهم وتعرف (بالشطحات) ، فمثلا سمع أبا يزيد البسطامى قوله الله تعالى : (إن بطش ربك لشديد) [١] .

فقال : بطشى أشد ، فظن الناس به الإلحاد ، ولكنه عرفهم مراده

---

[١] آية ١٢ سورة البروج .

منها وهو أن بطش العبد لا تصحبه رحمة وبطش الله تصاحبه الرحمة ، فكان الأول أشد لنزوع الرحمة منه ، فاستراحوا لذلك .

وقد وقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال الإمام على كرم الله وجهه : إن الله خلق الخلق بلا روية ، فشكوه لمولانا رسول الله وتعاظموا الكلمة ، فعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها كلمة حق ، لأن الروية من صفات العاجزين الذين يجهلون النتائج فيترددون فى الفكرة ، وليست هذه من صفات الله الذى يعلم ما كان وما يكون .

١٤ – <u>التواجد</u> :

تعترى بعض الصوفية أحوال فيتواجدون بحركات جسدية ، فيأخذ بعض الناس عليهم ذلك ، وهذا لا يقع منهم إلا وهم فى شبه سكر من الأحوال السنية التى ترد على قلوبهم ولا يملكون دفعها ، ولا لوم عليهم فى ذلك ، فقد تواجد سيدنا جعفر بن أبى طالب حين قال له مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم اشبهت خلقى وخلقى ولم ينكر عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك التواجد .

وبهذه المناسبة أقول ان بعض تلاميذ الامام الجنيد كانوا يتواجدون وإمامهم لا يتواجد ، فسئل فى ذلك فقال : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) ، وهذا يدل على أنه رضى الله عنه كان يملك كتمان الحال باستعداد كبير فيه .

لزوم علم التصوف :

قال الإمام السراج الطوسى صاحب اللمع حين تعرض للمقارنة بين الفقه والتصوف : (وللصوفية مستنبطات فى العلوم المشكلة على فهوم العلماء والفقهاء وذلك فى معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب وخبايا السر ومقامات الإخلاص وأحوال المعارف وحقائق العبودية ومحو الكون بالأزل وتلاشى المحدث إذا قورن بالقديم وفناء رؤية الأعواض وبقاء رؤية المعطى وعبور الأحوال والمقامات وجمع التفرقات وفناء رؤية القصد ببقاء رؤية المقصود ... الخ).

ثم استطرد فقال (وجميع ذلك موجود علمه فى كتاب الله عز وجل وفى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم مفهوم عند أهله ولا ينكره العلماء إذا استبحثوا عن ذلك .

(وإنما أنكر علم التصوف جماعة من المترسمين بعلم الظاهر لأنهم لم يعرفوا من كتاب الله تعالى ولا من أخبار رسوله صلى الله عليه وسلم إلا ما كان من الأحكام الظاهرة وما يصلح للاحتجاج على المخالفين ، والناس فى مثل زماننا إلى مثل ذلك أميل لأنه أقرب إلى طلب الرياسة واتخاذ الجاه عند العامة والوصول إلى الدنيا) .

(وقل من تراه يشتغل بهذا العلم الذى ذكرنا ، لأن هذا علم

الخصوص ممزوج بالمرارة والغصص ، وسماعه يضعف الركبتين ويحزن القلب ويدمع العين ويصغر العظيم ويعظم الصغير ، فكيف استعماله ومباشرته ، وذوقه ومنازلته ، وليس للنفس فى منازلته حظ ، لأنه منوط بأمانة النفوس ، وفقد الحسوس ، ومجانبة المراد ، فمن أجل ذلك ترك العلماء هذا العلم واشتغلوا باستعمال علم يخف عليهم المؤن ويحثهم على التوسع والرخص والتأويلات ، وقد يكون أقرب إلى حظوظ البشرية ، وأخف تحملا على النفوس التى جبلت على متابعة الحظوظ ... الخ) .

(وقد ذكر الله فى كتابه الصادقين والصادقات والقانتين والقانتات والخاشعين والموقنين والمخلصين والمحسنين والخائفين والراجين والوجلين والعابدين والسائحين والصابرين والراضين والمتوكلين والمخبتين والأولياء والمتقين والمصطفين والمجتبين والأبرار والمقربين) .

وقد ذكر الله تعالى الشاهدين فقال :

(او ألقى السمع وهو شهيد) [١] .

وذكر الله المطمئنين فقال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) [٢] .

---

[١] آية ٣٧ سورة ق .
[٢] آية ٢٨ سورة الرعد .

(وذكر الله تعالى السابقين والمقتصدين والمسارعين إلى الخيرات وقال النبى صلى الله عليه وسلم (إن من أمتى مكلمين ومحدثين وإن عمر منهم) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم (رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره وأن البراء منهم) . وقال لو ابصه (استفت قلبك) ولم يقل لأحد غيره ذلك .

(وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (يدخل بشفاعة رجل من أمتى الجنة مثل ربيعة ومضر يقال له أويس القرنى) .

(ولا خلاف أن هؤلاء كلهم فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

(ولما رأينا أن اسم الإيمان قد شمل جميع المؤمنين ، وأفرد هؤلاء بأسماء مختصة من ذلك ، دل ذلك على تخصيصهم من عامة المؤمنين الذين شملهم اسم الإيمان .

(وليس التفقة فى أحكام هذه الأحوال ومعانى هذه المقامات التى تقدم ذكرها بأقل من فائدة من التفقه فى أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود ، لأن تلك الأحكام ربما لا تقع حادثة فى العمر تحتاج لمثل ذلك ، فاذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قلد فى ذلك وأخذ بقول بعض الفقهاء فقد سقط به بعض ذلك إلى أن تقع به حادثة أخرى ، وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التى يتفقه فيها الصوفية ويتكلمون فى حقائقها فالمؤمنون مفتقرون إلى مثل ذلك ، ومعرفة ذلك واجبة عليهم ، وليس لذلك

وقت مخصوص دون وقت ، وذلك مثل الصدق والاخلاص الذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك ليس لها وقت معلوم بل يجب على العبد فى كل لحظة وخطرة أن يعلم أيش قصده وإرادته وخاطره ، فإن كان حقا من الحقوق فواجب عليه أن يلزمه ، وان كان حظا من الحظوظ فواجب عليه مجانبته ، قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم :

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) [١] **.**

(فمن ترك حالا من هذه الأحوال ما تركها إلا من غلبة الغفلة علىقلبه).

(واعلم أن مستنبطات الصوفية فى معانى هذه العلوم ومعرفة دقائقها وحقائقها ، ينبغى أن تكون أكثر مستنبطات الفقهاء فى معانى أحكام الظاهر لأن هذا العلم ليس له نهاية ، لأنه إشارات وبواد وخواطر وعطايا وهبات يعرفها أهلها لأنها من بحر العطاء وسائر العلوم لها حد محدود ، وجميع العلوم يؤدى إلى علم الفتوح ،

---

[١] آية ٢٨ سورة الكهف .

يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه فى فهم كلامه ومستنبطات خطابه ما شاء الله كيف شاء ، قال الله عز وجل :

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) [١] .

أخلاق ذميمة يجتنبها الصوفية :

عرفوا التصوف فقالوا : إنه الدخول فى كل خلق سنى والخروج من خلق دنى ، والمتصوف يجاهد نفسه إلى أن تزول عنه الأخلاق الذميمة من العجب والرياء والكبر والحسد والبخل والحقد وكفران النعمة والجزع والشكوى واليأس والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله وحب الظلمة وبغض الصالحين وحب الجاه والمدح والثناء وخوف الذم واتباع الهوى والشماتة والجبن والتهور والغدر وخلف الوعد والطيرة وسوء الظن وحب المال والحرص والسفة والبطالة والعجلة والوقاحة والحزن فى أمر الدنيا والفتنة والعناد والتمرد والنفاق والشره وحب الشهوات والاصرار على المعاصى وخوف الفقر والسخط على المقدور والغل والغش والغضب والبغضاء والعداوة والطمع والبذخ والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والمباهاة

---

[١] آية ١٠٩ سورة الكهف .

والاستكبار عن الحق والصلف والتزيين للخلق والمداهنة والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وشدة الانتصار للنفس وضعف الانتصار لله واتخاذ اخوان العلانية أعداء فى السر والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فوتها والأنس بالخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والخفة وقلة الرحمة وقلة الحياء .

ولا شك أن الدين نهى عن الصفات الذميمة ، ودعا إلىالتخلق بالأخلاق الكريمة ، حتى لقد قال سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

والصفات الذميمة السابقة نهى عنها الكتاب كما نهت عنها السنة المطهرة ، والصوفية يرون أن من ضرورى للصوفى فى الوقوف على حدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وعلاجها لأن هذا هو علم الآخرة وهو فرض عين عندهم ، فلم يبتدع الصوفية حين نهوا عن تلك الأخلاق الذميمة وإنما عملوا بالدين الحق ليزينوا البواطن بجهاد النفس الذى سماه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر .

<u>أخلاق حميدة يتحلى المتصوف بها :</u>

فإذا تخلص المتصوف بمجاهدة نفسه من الأخلاق الذميمة تحلى بالأخلاق الحميدة وصارت حلية له ، ولا حدود للصفات الحميدة ،

ولكنى أذكر على سبيل الأمثلة بعض ما يدعو الصوفية إليه من الأخلاق الحميدة :

١ – الهمة فى طلب الله :

ويؤدب الصوفية أنفسهم فى هذا المقام بقولهم إن البخل بخلان : أما البخل عند أهل الدنيا فهو أن يكون الرجل بخيلا بماله ، وأما الذى عند أهل الآخرة فهو أن يبخل بنفسه عن الله تعالى ، ألا وأن العبد إذا جاد بنفسه لله أورث قلبه الهدى والتقى ، وأعطى السكينة والوقار والعلم الراجح ، والعقل الكامل ، ومع ذلك تفتح له أبواب السماء فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح ، وإن كان فى طريق الدنيا مطروحاً .

كذلك يستحثون الهمم بقولهم من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل – وبقولهم : لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد – وبقولهم : بحسبك أن قوما موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وإن قوما أحياء تقسو القلوب بذكرهم .

ويقولون علامة الأولياء ثلاثة : همومهم لله وشغلهم فيه وفرارهم إليه .

٢ – الأدب :

يتهم الصوفية أنفسهم على مر الأوقات ويقولون كيف يصح لعاقل أن يبرىء نفسه ويوسف الصديق عليه السلام يقول :

(وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) [١]

كذلك يقولون : من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس .

ويقولون : أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه ، ويقولون :أقهر الناس لنفسه الراضى بالمقدور .

٣- <u>الزهد :</u>

ويقصدون به ألا يتلهى القلب عن الله مهما أقبلت الدنيا على العبد ويمكنون ظاهرة الزهد عندهم بقولهم إن الدنيا تميزت عن الآخرة فى القرآن بحرفين وهو قول الله تعالى :

(فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى) [٢] **.**

ويقولون : إن اغتممت لما ينقص من مالك فابك على ما ينقص من عمرك .

ويقولون : كل الدنيا فضول إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يكنه ، وعلم يستعمله .

---

[١] آية ٥٣ سورة يوسف .
[٢] آية ٣٦ سورة الشورى .

ويقولون : إذا أردت أن تكون فى راحة فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عليك .

ويقولون : صفة العبودية أن لا ترى لنفسك ملكا ، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً .

ويقولون كن كما كنت فى بطن أمك مدبراً غير مدبر ، مرزوقا من حيث لا تحتسب .

ويقولون : احذر أن تهلك بالدنيا ، فإن رزقك لا يعطى لأحد سواك .

ويقولون : إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارهم فهو خدعة ، وإذا حدثتك نفسك بتركها عند إقبالها فذاك .

وهم فى كل ذلك يستضيئون بنور قوله تعالى :

(لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) [١] .

٤ – <u>المراقبة :</u>

يستحضر الصوفية عظمة الله على الدوام ، فهم فى مراقبة دائمة ، ومما يقولون فى هذا المقام : تعهد نفسك فى ثلاثة مواضع : إذا عملت

---

[١] آية ٢٣ سورة الحديد .

فاذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك ، وإذا سكنت فاذكر علم الله فيك .
ويقولون : إن كنت تريد أن تعصى مولاك ، فاعصه فى موضع لا يراك .

٥- مجاهدة أعداء الله :

يرى الصوفية أن مجاهدة أعداء الله فى الإسلام واجبة .

ومن حكمهم فى ذلك قولهم : الجهاد ثلاثة : جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله ، وجهاد مع أعداء الله فى غزو الإسلام .

٦- الصبر :

يرى الصوفية أن من ألزم اللزوميات للصوفى فى الصبر على البلاء .
ويقولن : من صبر على صبره فهو الصابر لا من صبر وشكا لا بل إنهم يزيدون فيقولون :
صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح الصبور بالصبر صبرا

٧- التواضع :

يتحلى الصوفية بالتواضع ويقولون : الخير كله فى بيت مفتاحه التواضع ، والشر كله فى بيت مفتاحه التكبر ، ومما يدلك على ذلك أن آدم عليه السلام تواضع فى ذنبه فنال العفو والكرامة ، وأن إبليس تكبر فلم ينفعه معه شىء .

٨- **حسن العشرة :**

يتحلى الصوفية بحسن العشرة لجميع الخلق ومن قولهم فى ذلك : يعرف الأولياء فى الخلق بلطف لسانهم ، وحسن أخلاقهم ، وبشاشة وجوهم ، وسخاء نفوسهم ، وقلة اعتراضهم ، وقبول عذر من اعتذر إليهم ، وتمام الشفقة على جميع الخلائق برهم وفاجرهم .

وعلى الجملة كانوا يتأسون بحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم فى خلقه ، فاتصفوا بالحياء والسخاء والتوكل والرضا والذكر والشكر والحلم والصبر والعفو والصفح والرأفة والرحمة والمداراة والنصيحة والسكينة والوقار والتواضع والافتقار والسماحة والقوة والشجاعة والرفق والاخلاص والزهد والقناعة والخشوع والخشية والتنظيم والهيبة والدعاء والبكاء والخوف والرجاء والتهجد والعبادة والجهاد وما إلى ذلك من شمائله العالية صلى الله عليه وسلم .

ولا عجب فإن الله تعالى حين وصف حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم توَّجه بالخُلق العظيم بقوله تعالى :

((وإنك لعلى خلق عظيم)) [١] **.**

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٩ شعبان ١٣٨٢

١٥ يناير ١٩٦٣

---

[١] آية ٤ سورة القلم .

وقد تفضل الأزهر الشريف فأرسل إلى كتابا معبرا عن ارتياحه للمحاضرة وقد رأينا أن نورده بنصه شاكرين للقائمين عليه تقديرهم الكريم .

الأزهر
قاعة الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الجليل حسن الملطاوى
وكيل وزارة الخزانة
سلام الله عليكم ورحمته وبعد :

يسر الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية – باسم مشيخة الأزهر – أن تقدم لسيادتكم خالص شكرها وعميق تقديرها لما تفضلتم به الإسهام على منبر القاعة بمحاضرتكم القيمة .

(التصوف من وحى القرآن والسنة)
وكان تجاوب السادة المستمعين مع سيادتكم خير تعبير عن شكركم .

وختاما إذ نكرر شكرنا وتقديرنا : نسأل الله سبحانه أن يوفقنا وإياكم لما فيه خير الإسلام والعروبة .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

فى ٢١ من شعبان سنة ١٣٨٢ هـ
الموافق ١٧من يناير سنة ١٩٦٣ م

الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية
إمضاء
دكتور محمود حب الله